

الأسرة كيان جامع للرحمة

أصبحت الأسرة اليوم في مواجهة مباشرة مع تحولات اجتماعية وثقافية واقتصادية عميقة أعادت تشكيل الإنسان نفسه، وطريقة تفكيره، وحدود علاقته بالآخرين.

وما يحدث داخل كثير من البيوت العربية لم يعد مجرد خلافات أسرية عادية، وإنما حالة تآكل بطيء لفكرة الأسرة بوصفها كيانا جامعا للرحمة والاستقرار والقيم.

أخطر ما فعلته وسائل التواصل الاجتماعي أنها لم تدخل البيوت كأداة تواصل فقط، بل دخلت كمنافس للأسرة نفسها. لقد سحبت الحوار من غرف الجلوس إلى الهواتف، واستبدلت دواء اللقاءات الحقيقية بعلاقات رقمية سريعة وباردة، حتى صار بعض الآباء يعرف تفاصيل الغرباء أكثر مما يعرف ما يجري في نفوس أبنائه. ولم يعد مستغربا أن تجلس الأسرة ساعات طويلة في صمت كامل، كل فرد فيها غارق في عالمه الخاص، بينما يظن الجميع أنهم ما زالوا معا..

المشكلة ليست في التقنية ذاتها، فالتقنية محايدة، وإنما في طريقة استخدامها، فوسائل التواصل خلقت مقاييس جديدة للنجاح والسعادة والجمال، وأدخلت الناس في سباق نفسي مرهق قائم على المقارنة والاستعراض. الزوج يقارن حياته بغيره، والزوجة تقارن بيتها ببيوت الآخرين، والأبناء يقارنون واقعهم بما يشاهدونه يوميا من مظاهر الرفاه المصطنع، فتتولد حالة دائمة من عدم الرضا، وكأن الإنسان صار يعيش حياته باعتبارها مشروعا ناقصا دائما. حتى جاءت ضغوط الحياة الاقتصادية لتكمل المشهد القاسي. فالأسرة التي كانت تقوم على المشاركة والتكافل أصبحت محاصرة بالخوف من الفواتير، والبحث عن لقمة العيش، والقلق من المستقبل.

فتضعف مساحة الحوار، ويصبح الانفعال بديلا للفهم، والصمت بديلا للاحتواء. والأخطر من ذلك كله أن بعض المجتمعات بدأت تتعامل مع تفكك الأسرة باعتبارها أمرا طبيعيا أو أثرا جانبيا للتطور، بينما الحقيقة أن انهيار الأسرة هو بداية انهيار المجتمع كله. فالجريمة، والعنف، والتطرف، والانفلات الأخلاقي، وضعف الانتماء، كلها لا تبدأ في الشارع أولا، لكنها تبدأ حين يفقد البيت وظيفته التربوية والوجدانية.

لهذا كان الإسلام شديد العناية بالأسرة، لم يكتفِ الإسلام بالدعوة إلى الزواج، بل أسس لمنظومة كاملة

تقوم على السكينة والموودة والرحمة والعدل وتحمل المسؤولية. وحين أوصى بالرحمة داخل البيت، وبر الوالدين، والإحسان إلى الأبناء، وصلة الأرحام، لم يكن ذلك مجرد توجيه أخلاقي، بل حماية استراتيجية للمجتمع كله.

اليوم نحن بحاجة إلى إعادة بناء ثقافة الأسرة نفسها، نحتاج إلى وعي إعلامي يحترم قيمة البيت، وإلى مدارس تعزز التربية، وإلى آباء وأمّهات يدركون أن الحضور النفسي أهم من الحضور الشكلي.

كما أن استعادة الأسرة تبدأ من خطوات بسيطة لكنها حاسمة، تبدأ بتخصيص وقت يومي للحوار، وتقليل العزلة الرقمية داخل المنزل وتواصل فعّال يومي، وتحديد وقت أسري ثابت مع إعادة الاعتبار للوجبات العائلية، وتعزيز التربية الدينية والأخلاقية والاهتمام بالمشاعر قبل النصيحة، وتقسيم الأدوار والمسؤوليات والدعم وقت الأزمات، ومن ثم مراجعة مفهوم النجاح الذي اختزل الإنسان في المال والمظاهر.

علينا ان نعي انه حين تفقد الأسرة قدرتها على صناعة الإنسان المتوازن، يصبح كل شيءٍ بعد ذلك قابلاً للتصدّع، الأخلاق، والتعليم، والأمن، وحتى معنى الوطن نفسه.